مرحى إيتالو كالڤينو...*!

ابراهيم اليوسف

ثمة نصوص إبداعيّة مترجمة، نقرأها بين حينٍ وآخر، لا يضيرها أنّها كُتبتْ بلغة غير لغة قارئها الأم، وأنّها ابنة بيئةٍ مختلفة. ذلك لأنّها تمتلك وشائج ديمومتها، وفعّاليتها، فتتمكن من الهيمنة على متلقيها من خلال ابتكارها لخيوط سحريّة، تشدّه، وتبهره الى وقت طويل.

ولعلّ قصة «جنرال في مكتبة» التي أتحفتنا بها مجلة **الآداب** البيروتية للكاتب الكوبي ايتالو كالڤينو (ترجمة سماح ادريس) هي ـ برأيي ـ أحد تلك الأعمال الهامة، التي لا تتلكأ البتةَ في العثور على منزلةٍ خاصة لدى متلقيها، آخذةً بقلبه، ولبّه في آنٍ واحد، من خلال رصدها وحسْنِ معالجتها لموضوع هام جداً... هو الرقابة التي تمارسها المؤسّسةُ الرسميّة على الكِتَاب لكونه حاملاً للمعارف والقيم المتنوعة التي قد تعمل على توعية القارئ، وحضّه ضدّ «أولي الأمر»، وإثراءِ مداركه بما لا يتماشى مع حالة الركون إلى الثبات الذي يتطلب من المؤسسة تعزيزه وتكريسه.

جنرال مع وقف التنفيذ

إنّ الموضوع الذي ترصده تلك القصة هو، تحديداً، عدمُ اطمئنان الموظفين الرسميين في دولة «پاندوريا» الشهيرة الى الكتب عامة، لكونها تحمل آراءً معاديةً للهيبة العسكرية. وإنّ عدم ثقة الناس بـ «الجنرالات» إنّما تعود الى الأفكار التي نشرتها هاتيك الكتب، فترسختْ في عقولهم. ولذا فقد شكّلَ أركانُ حرب پاندوريا لجنةً بقيادة الجنرال «فدينا» لقراءة كُتُبِ أهمِّ مكتبةٍ في البلد. فيتمّ «احتلال» المكتبة، وطرد موظفيها، ما عدا واحداً فقط هو «سينيور كريسپينو» ليكون في وسعه أن يشرح للضباط كيف رُتِّبتِ الكتب. وكان أعضاء اللجنة ينقلون الى «فدينا» خلاصةَ قراءاتهم في كل مساء، ليرسل بدوره تقريراً يومياً مفصلاً الى قيادة الأركان، يكاد لا يكون فيه غيرُ أرقام الكتب المقروءة بعامة، والممنوعة بخاصة. ويفاجأ أعضاءُ اللجنة بأنّ هناك كتباً فيها ما هو «شنيع فظيع» إذ إنها تتجرأ على امتداح الحروب القرطاجية، بل وتنتقد الرومانيين، الّذين كان «الپاندوريّون يعتبرون أنفسهم متحدّرين منهم، بل ويصرّح أحدهم ذات مرة: «أية أشياء طريفة هي هذه..!؟

«لقد كان أولئك الناس من الجرأة والوقاحة بحيث شكّوا في نقاء المثل التي ألهمتِ الحملات الصليبية...!».

ونُفاجأ بأن تقارير اللجنة تقلّ فيما بعد؛ وهذا ما يزعجُ رئيس الأركان، ويُرسل أمراً بإنهاء التحقيق في أسرع وقت ممكن، الأمر الذي يقلق الجنرال فدينا ورجاله، خصوصاً أنهم صاروا «يكتشفون بشكل ثابت اهتمامات جديدة، ينبغي إرضاؤها»، وكانوا يستمتعون بما يقرأونه من كتب ودراسات أكثر مما كانوا تخيلوه في أيّ يومٍ على الاطلاق.

ونجد الجنرال يستنجد بالمكتبيِّ «كريسپينو» لصياغة تقرير شامل يقرأه فدينا أمام رئيس الأركان، فكان خطابُه «نوعاً من الخلاصة للتاريخ البشري» و «خلاصةً هوجمت فيها كلُّ تلك الأفكار التي كان أصحابُ الفكر اليميني في پاندوريا يعدّونها غير قابلة للنقاش. وفي هذا الخطاب أُعلنت الطبقاتُ الحاكمةُ مسؤولةً عن محنِ الأمّة، وأُعْلي مِنْ شأن الناس بوصفهم ضحايا للسياسات الخاطئة والحروب غير الضرورية».

ذعر الجبابرة

إنّ فقدان ثقة السلطة ـ أيّة سلطة كانت ـ بأدواتها المعرفية الرسمية، بل الاعتقاد بعجزها عن إلغاء منظومة

* ـ قراءة أولى لقصة كالڤينو «جنرال في مكتبة» (**الآداب** ١١/١٢، ١٩٩٦)، ص ٢ ـ ٥.

المعارف المضادة لدى الأفراد غير المنضوين تحت لوائها أو غير المتبنّين لرؤيتها، وكذلك الأمر بالنسبة الى مؤسسات بعينها لها خصوصيتها أيضاً... يجعلان تلك السلطة على الدوام في حالة قلق وتوجّس يؤديان بها في نهاية المطاف إلى ابتكار أساليب تضمن بقاءها مدةً أطول. فتتمسك بكلّ ما تؤتى به من قوة بعنان الأمور لئلا تفلت من أيديها. ولهذا، فإنّ أية ثقافة لا تتبنى أيديولوجيتها، ولا تحاربُ بسيفها، ولا تسبِّح باسمها، إنما هي ثقافة دخيلة لا بدّ من استئصال جذورها.

من المؤكد أنّ هذه الاشكالية، على قِدَمها، لمّا تزلْ قائمةً، بل إنّها تتفاقم تبعاً لتطوّر أشكال إخضاع الجماهير بعامة والانتلجنسيا منها بخاصة، وتنشأ في المقابل ثقافةً تستحدث لذاتها أدواتها الخاصة التي لا تتقاطع مع السائد.

إنّ حالة التأهب لدى المؤسّسة الرسميّة تدفعُها في كثير من الأحيان إلى خلق أعداء لها، من خلال تتبعهم، ورصدهم، وفرزهم، وتطويقهم. وهي لا تقف في كثير من الأحيان عند هذا الإجراء، بل يدفعها هاجسُ التمادي في الاحتراز الى تخيل أعداء وهميين، تسوقهم الى الحلبة بأسلحة دونكيشوتية كي تستعرض بأسها، وجبروتها، وقبضتها الحديدية.

كل هذا الاضطراب غير الصحيّ ينعكس بتبعاته السيئة على المشهد الثقافي الذي يظلُّ ناقصاً دائماً ما لم تتواشج الخيوط التي تصوغه لتصنع حياته الخاصة، وتبثّ فيها الروح. ذلك لأنّ هذا المشهد هو نتاجُ مجملِ العلاقات التي تكون وراءَ فرز هاتيك الخيوط التي يمكن خلالها أن يتمّ حوارٌ دائم بين ثقافتين متضادتين، بل متناحرتين، ما دامت ثقافة المؤسّسة المهيمنة لا تتصادى مع طموحات عامة الناس. كما أنّ أخطر ما يمكن أن تورِّط به هذه المؤسسةُ المقتدرة ذاتَها، هو أن تفرز - ومن حيث لا تعلم - نُخَباً كانت منتميةً إلى بنيتها هي ذاتها. فكأنّ السلطة - بمبالغتها في التحسب المفرط، وبالتهويل بالأخطار المحدقة وغير المحدقة في آنٍ واحد - إنما تسعى «لحفر قبرها» بنفسها!

إنّ هذه القصة، إضافةً الى كونها صرخةَ احتجاج وإدانةً لضروب القمع الفكري، تجنحُ أيضاً للتأكيد على دور الثقافة الحقّة المعافاة، بغية إزالة يقينياتٍ ترسختْ في مناخاتٍ دبقيّة، راكدةٍ، دون اكتراث بالضريبة التي تدفع في مواجهة آلية التلقين الواحدي.

خطوات وأصداء

لقد مرت اللّجنة في أربع مراحل:

١ - مرحلة غربلةِ كلِّ ما كان في مكتبة البلد، وهي مرحلة شاقّة، تفرض على كواهل أعضائها مسؤوليةً عظيمة تجاه سادتهم ممّن أولَوْهم الثقةَ للقيام بهذه المهمة.

٢ - مرحلة الاصطدام، وهي مرحلة نشأتْ من جراء شروع الضباط بالقراءة، وما استتبعتْهُ من مواجهة أفكار جديدة مختلفة ظلّت متوارية الى أمدٍ طويل، لكنها راحتْ فيما بعد تهزّ القناعات المترسخة في أذهان أعضاء اللّجنة.

٣ - مرحلة استساغة المفاهيم الجديدة نفسها، وقد أدّتْ الى توليد الشكوك بقدسيةِ كلِّ ما كُرِّس في أحقاب سابقة نتيجةً لعلاقات غير متكافئةٍ البتة.

٤ - مرحلة المواجهة الفعليّة والفعّالة للآلية السائدة، والنزوع إلى ابتداع ما هو أقرب الى المنهج. وقد تضمّن خطابُ هذه المرحلة، رغم تضبّب الرؤيا والرؤى فيه، توقاً الى عالم آخر. وهكذا فقد بدا «أبطال» هذه القصة رحلةً معاكسة، إذ خرجوا على الأدوار التي رُسِمتْ لهم كرموز قمعية ترسي التجهيل وتوطّد التضليل، فسعوا الآن إلى استبصار واقعهم وتاريخهم وأعلامهم، وبدأوا بصياغة مشروع ذي رؤى وأدوات فاعلة، دون أن يخشوا مغبّة سعيهم هذا...

إنّ مأساة پاندوريا في الأصل هي تكرار لحوادث مشابهة تؤكّد عليها دراسةُ التاريخ حيث: الكتبُ تحرق، أو تُرمى في المياه، وحيث يوهَمُ معتنقو أفكارها بلوثة «الجنون»، وحيثُ «تأكل بَغلةٌ نسخةً مهملة من مخطوطة نادرة» كتصفية معرفية لا تزال قائمةً بحقِّ كلِّ مارقٍ لا يحارب بسيف السلطان ولا يبوِّق لمآثره وسجاياه العطرة. بيد أن المفارقةَ في القصّة لا تتوقف عند هذا الحد فقط، لأنّ الكاتب يقفل على هذا النحو الصادم: «وكانوا غالباً ما يشاهَدُون - أيْ هؤلاء الضبّاط - مرتدين ثياباً مدنية، ومعاطفَ ثقيلةً، وكنزاتٍ سميكةً، كيْلا يتجمدوا من البرد، وهم يدخلون إلى المكتبة القديمة، حيث ينتظرهم سينيور كريسپينو مع كتبه...» تماماً كما كان يحدث من قَبْلُ مع العلماء الباحثين.

وأخيراً، إذا كانت هذه القصة جدُّ مؤثِّرة، في نفس متلقّيها، فإنّ ذلك قد تأتّى - بالتأكيد - من خلال بنائها المتماسك، وتقنيتها العالية التي لم تنزع للبهلنة، والإغراقِ في الفنتازيا. وتأثيرها في النفس يعود أيضاً إلى الترجمة الرائعة للقصة، وهي ترجمة أبدتْ مقدرةَ المترجم الفائقةَ على نقل عوالم الكاتب، بإتقانٍ وأمانةٍ جليّين.

وإذا كان المترجمُ قد خصَّ هذا النصَّ الهامَّ جداً بـ «افتتاحيةٍ» تناول فيها معاناةَ الثقافة العربية ومعاناة **الآداب** مع «الرقابة»، وعقّب عليها بزاويةٍ مماثلة هي «أسئلة النص العربية»، فليس ذلك إلا لاحتفائه بمنزلةِ النصّ الذي يضع إصبعاً على جرحٍ فاغرٍ في خاصرة الجسد الإنسانيّ.

القامشلي (سوريا)